





إشراف: أ.د. نهلة الصعيدي (*)

مبتدأ عوامل إحسان الإبانة باللسان العربي فهمًا وإفهامًا للناطقين بغيره

أ.د. محمود توفيق (**)

من خواص لسان العربية الفصيح أنه اللسان الأوحد من بين سائر ألسنة بني آدم ارتباط إجادته بعقيدة المتكلم به، فالعلاقة بين العربية والإسلام عقيدة وشريعة وسلوكًا علاقة وثقى لا سبيل إلى انفكاكها، فليس لمسلم أن يقف بين يدي ربه -عز وجل- مصليًا أن ينطق في صلاته بغير اللسان العربي الفصيح، وهذا يجعل هذا اللسان محفوظًا ما بقيت الحياة ببقاء الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكًا مهما تظاهرت العاديات على أن تعبث به، وتقطع أهله عن التكلم به.

وهذا يجعل تعلمه فريضة على كل مسلم، فأول ما يجب أن يتعلمه من شاء الدخول في الإسلام بعد نطقه بالشهادتين بلسان عربي أن يتعلم من العربية ما يعينه على أن يؤدي ما فرضه الله -عز وجل- عليه.

يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي -رضى الله عنه- (١٥٠ - ٢٠٤هـ): «على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح، والتشهد، وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ﷺ وأنزل به آخر كتبه: كان خيرًا له، كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها(١) ويأتي البيت، وما أمر بإتيانه، ويتوجه لما وجه له، ويكون تبعًا فيما افترض عليه، وندب إليه، لا متبوعًا.

وإنما بدأت بما وصفت، من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد، جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها»(٢).

(*) مستشار شيخ الأزهر لشئون الوافدين، ورئيس مركز تعليم الطلاب الوافدين

(**) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) رفع المضارع (يتعلم) في قوله: «كما عليه يتعلم الصلاة» عربية فصيحة كما قال الإمام أحمد محمد شاكر، محقق (الرسالة) ومذاهب العرب في الإبـانة وسيعة لا يحيط بها عالم فذ.

(٢) الرسالة. تأليف محمد بن إدريس الشافعي القرشي (ت: ٢٠٤هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مكتبه الحلبي، مصر. (ط:١) عام ١٣٥٨هـ ص (٤٩، ٥٠).



فحقيق على مسلم لا ينطق باللسان العربي الفصيح أن يتعلمه، وألا يستغنى ببعض عن بعض ما تيسر له أن يتعلم، فمثل هذا لا يستغنى عن الإكثار منه، وإلا يستكفي بما تقتضيه الضرورات.

وإذا ما كان بعض يرى أن تعلم لغة غير عربية ضرورة حياتية للانتفاع بالتقدم العلمي ومواكبة تطور حركة الحياة، فإن تعلم الإبانة فهمًا وإفهامًا باللسان العربي الفصيح ضرورة عبادية بها تتحقق عزة المرء في مسيره الدنيوي، وسعادته في مسيره الأخروي.

والناطقون بغير اللسان العربي الفصيح جمع كثير منهم من هو عربي النسب؛ بل قد يكون قرشيًّا صليبة، ومنهم من هو غير عربي النسب والموطن، فالناطقون بغير اللسان العربي الفصيح قسمان:

القسم الأول: من كان عربي النسب أو الموطن ينطق باللغة العربية، ولكن ليس بلسان عربي فصيح، هو ينطق بالعامية التي يغلب عليها مفارقة اللسان العربي الفصيح، ولا سيما في خواصه التركيبية والأدائية، وهذا هو الغالب على كثير جدًّا ممن يقطنون ما يسمى «الوطن العربي».

والقسم الآخر: من كان مسلمًا غير عربي الأرومة ينطق بلسان أعجمي ويعرف قليلًا من العربية[٣].

القسمان معًا بحاجة بالغة إلى أن يتعلموا ممارسة الإبانة فهمًا وإفهامًا بلسان عربي فصيح، وهذا ليس نفيلة يتطوع بها؛ بل ذلك فريضة عين على من استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ذلك أن إتقان الإبانة باللسان العربي الفصيح هو الأداة الرئيسة لحسن تلقي بيان الوحي قرآنًا وسنة، وتلقي هذا البيان لا يكون بإحسان اللسان الأعجمي ولا بممارسة الإبانة فهمًا وإفهامًا بلهجة عامية بعيد أصولها من اللسان العربي الفصيح.

في بيان الوحي معان لا يمكن لمسلم أن يرغب عنها أو أن يقف بين يدي ربه متعبدًا، وهو غير عليم أو غير مستحضر تلك المعاني، وهي التي لا تستنبط إلا بالعلم باللسان العربي الفصيح إفهامًا وفهمًا.

وأول مراحل طريق العلم باللسان العربي إنما جانباه: «حسن الإصغاء»، و«حسن الإلقاء»[٤].

هاتان الثقافتان: «حسن الإصغاء» و«حسن الإلقاء» لا يتحققان إلا بالممارسة العملية قبل التعلم النظري، فمن لم يكن له نصيب موفور منهما قبل تلقي علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، فإنه لا يكون محسنًا الفهم والإفهام باللسان العربي الفصيح الذي جاء به الوحي قرآنًا وسنة.

الطريق القويم لإحسان التلقي باللسان العربي الفصيح هو (الإصغاء) إلى من يتقنون الأداء بالفصحى أداء مصورًا دقائق المعاني ولطائفها.

---

(٣) ليست (العجمة) انتفاء الإبانة مطلقًا؛ بل هي عدم الإبانة بالنسبة لمن لم يتكلم بها، فالفارسي إذا تكلم الفارسية فهو مبين عند من يفقهها، وكذلك الإنجليزية، وقد غلب في (الثقافة العربية) إطلاق (العجمة) على كل لسان غير عربي، من أن الإبانة به من دون الإبانة باللسان العربي، ولعل نعت من يتكلمون بهذا اللسان بأنهم عرب من أنهم يحسنون الإعراب عن مكنون صدوره إعرابًا بينًا لا لبس فيه، ولا لكنة. فالعروبة صفة لسان، فكل من أتقن البيان به هو عربي، وليست العروبة نسبًا، بل العروبة لسانًا.

(٤) آثرت الإعراب بقولي: «حسن الإلقاء» عن «حسن الأداء» وقد يحسب أنهما سواء، لأني لم أقصد بالإلقاء مجرد النطق بالعربية وأدائها؛ بل قصدت إلى حسن إلقاء الكلام في فؤاد السامع، لا في سمعه، وهو ما عبر عنه أبو الحسن الرماني (ت: ٣٨٦هـ) بقوله: «إيصال المعنى إلى القلب»، فالإلقاء هو إلقاء الكلم صورة ومعنى في فؤاد السامع وتمكينه فيه.




مستويات الإدراك السمعي للبيان

الإدراك السمعي للبيان ثلاثة مستويات متصاعدة:

المستوى الأول (السمع): وهو إدراك الأذن ما يقال، ولو من غير قصد واعتناء. وهذا لا يحاسب المرء عليه إذا ما كان عرضًا. كمن يسمع غناء ونحوه في الطريق عرضًا لم يجلس له، ولم يتعمد.

والمستوى الثاني (الاستماع): وهذا لا يكون إلا بقصد واعتناء؛ لأنه يتجاوز به إدراك الأذن إلى إدراك الفؤاد، وهذا هو مناط المحاسبة إن خيرًا، فطوبى، وإن غيره، فسوءى، وصيغة (الافتعال) هادية إلى مدلول كلمة (الاستماع).

والمستوى الثالث (الإصغاء): وهو الأعلى، وذلك يكون بكمال اشتغال الفؤاد بتلقي الكلام كمالًا يظهر أثره على حركة الجسد، بأن يحمل كمال الاعتناء الفؤادي بالكلام الجسد على أن يميل إلى جهة المتكلم.

كمال التلقي يفتقر فيه إلى اكتساب (ثقافة الإصغاء والإلقاء) وهذا الاكتساب لا يكون بالتعليم النظري، بل بالممارسة العملية، بحيث يعرض على سمع طالب العلم في المراحل الأولى نماذج صوتية من الأداء العالي للسان العربي المتضمن ما تميل النفس إلى استماعه، ويجتهد في ألا يستمع إلى ما دونه، فإذا ما بات ذلك طبعًا أمكن تدريبه على تقليد إلقائه، فينتقل به من مرحلة الإصغاء الحميد إلى مرحلة تقليد ما أصغى إليه، كل ذلك دون أن يشغل بتعليمه قواعد نحو الجملة وصرفها وبلاغتها، فاللغة لا تعلم قواعد نظمها أولًا بل تعلم بحسن الإصغاء ثم بحسن تقليد ما أصغي إليه أداء فرديًّا وجماعيًّا، فاللسان ممارسة، وليس تعليمًا نظريًّا على ما يجري في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، فسلكنا بطلاب العلم مسلكًا غير نفيع مما جعل الطلاب لا يرغبون في تعلم العربية. وحق علينا أن نهود إلى الحق، وأن نعيد النظر في منهاج تعليم العربية لطلاب المراحل التعليمية قبل التعليم الجامعي.

حقيق علينا أن نعني في تعليمهم بتحقيق حسن اصطفاء النصوص التي يدربون على حسن الإصغاء إليها ثم تقليد أدائها وتدريب معلمي العربية على اكتساب مهارة الإلقاء المصور للمعاني، وأن يقوم بهذا التدريب خبراء في الإلقاء المصور.

وهذه المراحل التعليمية إذا لم يعن فيها باكتساب الطلاب مهارة (الإصغاء) ومهارة (الإلقاء)، فلن يكون لتعلم قواعد علوم العربية على تعدد تلك العلوم وتنوعها أثر حميد، سيبقى الطالب مدركًا قواعدها غير مقتدر على أن يعرب عن مكنون صدره على وفقها، مما يحمله على أن يتكلم بالعامية، وأن يكتب بالعامية على ما أنت تراه الآن فيهم.

حق العربية علينا وهي لسان بيان الوحي قرآنًا وسنة أن تكون النصيحة لها ولمن يطلب علم الإبانة بها أن نجتهد في تحقيق ثقافة (الإصغاء والإلقاء) باللسان العربي الفصيح، ولا يؤذن بدراسة قواعد اللسان العربي إلا لمن تحقق فيه التمكن من حسن (الإصغاء والإلقاء) معًا.

والله -عز وجل- هو الهادي إلى سواء السبيل.

